آلياً على اشتغالها الفضائي المعتاد، هذا الأخير الذي بقي استمراراً للنموذج الفضائي القديم، رغم التغيرات التي اكتنفته على امتداد أزيد من 11 قرناً. لقد بقي النموذج القديم حاضراً باستمرار، وما يزال كذلك حتى اليوم، لأن مسوغاته الإيقاعية مستمرة الفعل في ذاكرة الشعراء والمتلقين. ولم تكن ملامح التغيير سوى استثناءات خاصة ومحدودة جداً بظرفيات معينة، الأمر الذي حال دون تجذرها وفعلها العميق. إذ سرعان ما احتواها النموذج القديم لتصير جزءاً من تاريخه الخاص كشكل. وقد يعود السبب في ذلك إلى:

أ ـ كون التنويعات المختلفة على النموذج القديم ـ كالقواديسي والموشح والمسمط والتشجير والتختيم ـ لم تكن تطرح كبدائل نهائية للنموذج الأصلي، بل كتنويعات قبل المناخ الثقافي ببقائها إلى جواره في تعايش وتساكن.

ب ـ انتفاء الشروط المادية لانتشار النماذج الجديدة في فضاءات أرحب، على عكس ما نشهده اليوم من شيوع وسائل الاتصال الجماهيري ودور النشر والمطابع...

ج ـ سكونية سنن التلقي الأدبي في المجال الثقافي العربي، بحيث ظل نموذج القصيدة القديمة هو كل الشعر ولا شيء سواه، بحيث كانت التحولات النوعية المذكورة تتم في معزل عن شروط التلقي عند السواد الأعظم من المهتمين، لأن الإنسان العربي ظل مسكوناً بثقل مهاده الثقافي الذي يشكل الموروث الشعري قسماً وافياً منه.

وفي اعتقادنا أن مجموع هذه العوامل متضافرة، حالت دون انتفاء الشكل النموذج، لأن مسألة تدمير السنن لا يمكن أن تحسم فيها نزوة أو قناعة فردية أو حتى جماعية محدودة، بل الحسم يعاد به دائماً إلى المجال الواسع للمتلقين، بعبارة أخرى إن كل نتاج جديد يلقى به إلى المتلقي يجب أن يتضمن مقومات قبوله وتلقيه، وهذه العملية الأخيرة تفترض قبلياً تعاقداً ضمنياً بموجبه يقبل الجديد ويمنح ثقة المتلقين.

مجموع صيغ العرض التي تقوم على خلخلة الجاهز في ذاكرة وأذواق القراء تولد دهشة ورفضاً وتساؤلات، قبل أن يتم السعي إلى تحقيق الإلفة مع الجديد ليصير بعد ذلك مدجناً[2].

إن قيمة العمل الشعري الجمالية ليست وحدها محط اهتمام القراء، رغم أن الشعر «بقي... مساعداً على قراءة تزيينية (Esthétisante) مجملة تقنع في أحسن الأحوال فعالية النص أو تكشف مجانيته...»[3].

فالقيمة الجمالية يمكن أن تثير المتلقي، ولكن المثير أصلاً هو رصد خرق السنن المألوفة

---

(2) يمكن الاعتبار بالصراع بين المقلدين والمجددين في التراث النقدي العربي، وبموجة الرفض التي قوبلت بها تجربة الشعر الحر ولا تزال.

(3) Théorie d'ensembles, choix tel quel. coll points. 1968. pp. 97, 98.